# دلالات التحولات الاجتماعية والثقافية للبطل الشعبي في "سيرة الشيخ نور الدين" للدكتور أحمد شمس الحجاجي

أ. شاهندة محمد زكريا الباجوري*

## مقدمة

تسعى هذه الدراسة للكشف عن دلالات التحولات الاجتماعية والثقافية للبطل الشعبي في رواية "سيرة الشيخ نور الدين" للأستاذ الدكتور أحمد شمس الحجاجي، التي نالت قبولًا كبيرًا في الأوساط الأدبية عند صدورها، واختيرت ضمن أفضل مائة رواية في القرن العشرين، وتم تحويلها فيما بعد إلى مسلسل تليفزيوني بعنوان "درب الطيب". فالبطل الشيخ نور الدين وُلِدَ وعاش في الصعيد، وكان قدره أن يكون كبير عائلة الحجاجية بالأقصر، وأن يكون المسئول عن خدمة ضيوف الله في ساحة مسجد جده الأكبر أبي الحجاج، لكنه مر بعدد من الاختبارات التي شكلت لديه روح التمرد والخروج على التقاليد والأعراف التي كانت سائدة آنذاك، ثم جاء واستكمل هذا التمرد وسار على نهجه ولده "محمود" امتداده ووريثه في الحياة؛ فكانت لتلك التحولات الاجتماعية والثقافية؛ مجموعة من الدلالات في النص.

وتعد تيمة التمرد هي المحرك الأساسي للشخصيات التي قررت مناهضة ومقاومة مجتمعها وثقافته بما تحتوى عليه من عادات وتقاليد وموروثات، لكن بدون الانسلاخ عن الجذور والهوية، فكانت التحولات على الصعيدين الاجتماعي والثقافي؛ تحولات إيجابية بنَّاءة ترتكز على العلم والمعرفة، تقوم بدفعه إلى الأمام، كالذي حدث مع الشيخ نور الدين عندما تمرد على مجتمعه، وأصر على السفر والتعلم في القاهرة، فعاد متأثرًا ومتسلحًا بالأفكار الحداثية التي كسر بها تابوهات القديم، وخرج بها عن المألوف في صعيد مصر، فساهمت تلك التأثيرات إيجابًا على أحكامه وقراراته عندما صار كبير قريته وشيخها وقاضيها، فلم يعتمد على الموروثات والتقاليد فقط في الفصل بين الناس عند الاحتكام إليه، بل مزج بين ما تعلمه من فكر حديث وبين ما استقاه من نصوص دينية تحتكم إلى مراتب الدين الثلاث؛ الإسلام والإيمان والإحسان، فطبق ما تعلمه في الأزهر من فقه وعقيدة على مرتبتي الإسلام والإيمان، ونسج في مرتبة الإحسان كل الأفكار الحديثة التي استقاها

---

* باحثة دكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها-جامعة القاهرة

من القاهرة خلال فترة سفره، وصهر تلك المعادلة في بوتقة واحدة تحت مظلة عائلته، مما جعله بطلًا شعبيًّا عند كل أفراد أسرته ومحبيه ومريديه.

كما شكَّل هذا التمرد عنصرًا مهيمنا في النص، فكان محفزًا رئيسيًّا في التحولات الاجتماعية والثقافية لدى شخصيات وأبطال العمل سواء أكان "الشيخ نور الدين"، أم ابنه "محمود"، أم "تريزا" التي أحبت مسلمًا وتمنت الزواج به، أم دياب الذي ذهب لكنه عاد، وحتى الغازية "رفيقة" التي تمردت هي الأخرى على عادات وتقاليد قبيلتها الغجر، وأقلعت عن الرذيلة.

وعاش البطل الشعبي في الرواية وأجيالها المتعاقبة أزمة الوجود بين إرث الأجداد الذي يمثل لعائلتهم الهوية، وبين الخضوع للتطور المعماري الذي طال الحضر والذي يتمثل في هدم ساحة مسجد جده، وخلق هوية مطموسة لجيل مشتت؛ أدت بدورها إلى أزمة وجود ثقافي لدى بعض أبطال العمل السردي.

ويُمثل الكاتب المتمرد "أحمد شمس الدين الحجاجي" البطل الإشكالي الذي دائمًا ما اشتبك مع المجتمع من خلال قضاياه التي يختارها لأعماله، فانعكس ذلك على شخصية بطله الشعبي في "سيرة الشيخ نور الدين"، فكتب سيرة غيرية عن شخصيات عايشها وعاصرها، وربما كان جزءًا منها، فانعكس ذلك بدوره على لغة النص، كما كان المؤلف بمثابة الطائر الذي نقل الأحداث للمتلقي عن طريق الراوي كلي المعرفة، فأصبح التبئير؛ أي حقل الرؤية "تبئيرًا داخليًّا" على الرغم من كون الراوي عليمًا، وهذا عكس المتعارف عليه في الدراسات السردية.

**حاول البحث الإجابة عن تساؤلات تقع جميعها تحت سؤال البحث الأساسي، وهو:** ما دلالات التحولات الاجتماعية والثقافية للبطل الشعبي في "سيرة الشيخ نور الدين"؟، وكيف أثرت تلك التحولات على البناء الفني للرواية على مستوى صياغة الحدث، الشخصيات، الزمان، المكان، زاوية الرؤية، والمنظور السردي، حقل الرؤية، والقضايا التي تمخض عنها النص؟

**يهدف البحث إلى الكشف عن** دلالات التحول الاجتماعي والثقافي على البطل الشعبي، والشخصيات الروائية في نسق العمل الأدبي. كما يسعى للكشف عن كيفية مخالفة حقل الرؤية، أي التبئير في النص لما هو متعارف عليه في الدراسات النقدية، كما يهدف إلى الكشف عن دلالات تمرد المؤلف الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي على لغة النصوص الأدبية السائدة في الكتابة الروائية.

**اعتمدت الدراسة** على المنهج الاجتماعي الذي يربط بين الأدب والمجتمع بطبقاته المختلفة، وبعض من أدوات المنهج الثقافي، ونظرية النسق التي بلور معالمها "تالكوت بارسونز"، والتي تدرس الأنساق الثلاثة: الثقافة، والشخصية، والنظام الاجتماعي، كما اعتمدت الدراسة على بعض من تطبيقات البنيوية لجيرارجنيت فيما يخص عناصر التبئير والمنظور السردي وزاوية الرؤية.

**تنقسم الدراسة** التي نحن بصددها إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، المبحث الأول بعنوان: قِراءة نَقدية في عتبة العنوان وإشكالية البطل الشعبي، والمبحث الثاني: أثر التحولات الاجتماعية والثقافية في تشكيل الشخصية الروائية، المبحث الثالث: حقل الرؤية السردية في سيرة الشيخ نور الدين.

## المبحث الأول – قِراءة نَقدية في عتبة العنوان، وإشكالية البطل الشعبي:

### العنوان وإشكالية البطل الشعبي:

يعد العنوان من أهم عناصر النص الموازي، وقد أولت السيموطيقا أهمية كبرى للعنوان باعتباره مصطلحًا إجرائيًّا ناجحًا في مقاربة النص الأدبي، ونظرًا لكونه مفتاحًا أساسيًّا بامتياز، يتسلح للولوج إلى أغوار النفس العميقة بغرض استنطاقها وتأويلها، ومِن ثَمَّ يستطيع العنوان أن يفكك النص مِن أجل تركيب بنياته الدلالية والرمزية، ويضيء للقارئ في بداية الأمر ما غَمُض من النص[(9)].

"فالعنوان هو "المفتاح الإجرائي" الذي يمد المتلقي بمجموعة من المعاني التي تساعده في فك رموز النص، وتسهيل مأمورية الدخول في أغواره وتشعباته الوعرة؛ ليتضافر الأول مع الثاني على مستوى مظاهر القص من حدث وشخصية وفضاء، وعلى مستوى الخطاب من رؤية وصيغة وزمن"[(10)].

**والعنوان** في رواية "سيرة الشيخ نور الدين"[11] تشخيصي حيث ساق لنا المؤلف اسم البطل الذي تدور في فلكه الأحداث، فمال الكاتب إلى المباشرة، ولم يلجأ إلى المراوغة، وأفصح عن البطل الرئيسي الذي يدور حوله العمل الروائي وهو الشيخ "نور الدين" عمدة الحجاجية بمحافظة الأقصر،

---

(9) انظر جميل حمداوي، سيموطيقا العنوان، جدة، السعودية، دار النشر الشرقية، ط1، 2015، ص8.

(10) عبد الحميد المحادين، جدلية الزمان والمكان والإنسان في الرواية الخليجية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، 2001، ص23.

(11) أحمد شمس الدين الحجاجي، سيرة الشيخ نور الدين، القاهرة، وزارة الثقافة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2012.

فكان قدره أن يكون كبير تلك العائلة التي تعد من أكبر عائلات محافظة الأقصر، ويخدم ضيوف الله في ساحة مسجد "أبي الحجاج "جده الأكبر.

كما كان مقدرًا له أن يكون بطلًا شعبيًّا منذ نشأ طفلًا وحيدا لأبيه "مصطفى يونس" وأمه بعد غرق ابنهما الأول عبد الرحيم، وقتها دعا شيخ الساحة "أحمد أبو شرقاوي" لأبيه "**اللهم اجبر كسره بنور الدين أبو البركات**"، وبالفعل بعد تسعة أشهر بالتمام، ولد كالنور في حجر أمه، فأسمته نور الدين، غير أنها أسمته "أحمد" في شهادة الميلاد الرسمية على اسم جده، لكن لقب «نور الدين أبو البركات» غلب عليه طوال عمره.

وبالفعل كانت له بركات، فعندما قلّ منسوب نهر النيل، ولم يفض كعادته ليسقي الأهالي أراضيهم قام بالدعاء "**كان يتحرك في الماء كمركب بخاري سريع حتى وصل إلى منتصف النهر فاعتدل واقفًا، يبدو أنه يحرك قدميه وكأنه واقف على اليابسة...وأخذ يستخدم كلتا يديه وهو يفتح المنديل وينثر تراب الجبانة، وهو يقرأ ياسين، ثم يلقي بالمنديل، ويدعو الله" يارب النيل ورب الأرض، ورب البشر، ورب كل حي وجماد، ورب ما يعلم وما لم يعلم .. خفف عنا الضر.. وارفع عنا البلاء .. وارفع الماء، لنا منة وثواب" صـ 64**، ففاض النهر، وحلت البركات.

وهنا نتساءل عن دلالات البطل الشعبي الإشكالي في النص؟ فالشيخ نور الدين بطل شعبي، لم يختر أن يكون كذلك، إنما نصّبه كل من حوله بطلًا شعبيًّا؛ كونه يتسم بجميع سمات البطل الشعبي التي جعلته نموذجًا للشخصية التي يحبها ويقدرها جميع أفراد قريته والقرى المجاورة، سواء أكانوا أصغر منه أم أكبر سنًا، فكانوا يلتفون حوله، ويعتبرون حكمه وكلمته سيفًا، وقراراته قانونًا يسري عليهم، ولا يردونه أبدًا حتى ولو لم يصادف حكمه هواهم.

**"رفع أحد الرجال صوته: عاوزين نتطلق ياشيخ.**

**– طلاق في عينك أنت وهو.. تطلقوا إيه.**

**–يا سيدنا الشيخ أنت عارف بنت ال...تعباني.**

**–امشى اخرج يا مجرم..انت تتعب بلد.**

**ألقى الشيخ نظرة على الفتاة الباكية وقد تورمت عيناها من ضرب زوجها:**

**اسمعي يا بنتي لما يحب يطلقك، ما تجيش معاه، سيبيه يطلقك غيابي، ما تضيعيش حقك، وحق أولادك......**

- **ابتسم الشيخ فالرجل لم يتوقف عن القسم بالطلاق....لو ترك هؤلاء الناس للحظات غضبهم لطلق نصف المدينة. إنهم دائما يغضبون منه، وقد يسمع منهم اتهاما بالتحيز فهو غالبًا ما يأخذ صف المرأة، ولكنهم كثيرًا ما يعودون له معتذرين" صـ19.**

وفي الوقت ذاته هو بطل إشكالي [12] ممزق بين الذات الفردية والذات الجماعية، فما بين تمرده الداخلي وبين عادات المجتمع القبلي الذي أصبح مسئولًا عنه، مر البطل بعدد من الاختبارات والتحولات، وما بين هذه الاختبارات والتحولات الجذرية، عاش هذا البطل في الرواية وأجيالها المتعاقبة أزمة الوجود بين إرث الأجداد الذي يمثل لعائلته الهوية، وبين الخضوع للتطور المعماري الذي طال الحضر، وخلق هوية مطموسة لجيل مشتت؛ أدت بدورها إلى أزمة وجود ثقافي لديه، ولدى بعض شخصيات العمل السردي، فكان اختباره الأصعب في نهاية حياته هو اصطدامه بالحكومة عندما قررت هدم ساحة جده أبي الحجاج، لإقامة عدد من المشروعات العمرانية الجديدة، فعاش البطل نور الدين في تمزق، وعانى أزمة الهوية بين دوره في الحفاظ على هوية أجداده وموروثاتهم، وبين الانصياع للتطور الحضاري، والمشروعات الجديدة "**تحرك الشيخ موليا ظهره للساحة وهو يسأل نفسه: أيترك مصلحة الآثار تهد الساحة؟ ألا يوقفهم؟ أهكذا بين يوم وليلة يفقد ساحته؟ .. لقد وجدت الساحة مع وجود أسرتهم في مدينة الأقصر، وهو يعرف أن جده الثاني أحمد يونس أعاد بناءها، كما أعاد بناء مئذنة جده الشيخ أبو الحجاج" صـ4**، لكنه احتكم إلى حكمته وسنوات خبرته الطويلة في زعامة جماعته، فآثر ألا يقف أمام رياح التغيير العاتية، خوفًا على أهله وليس خوفًا على نفسه أو من الحكومة "**تلح عليه فكرة مقاومة الحكومة وترهقه، حاول أن يبعدها عن ذهنه حتى لا يدخل الأهالي في مشاكل معهم، فهي لا ترحم**".. "**يقولون إنها أوامر الحكومة. لقد عاش طويلا لا يعرف معنى لكلمة الحكومة غير مجموعة أوامر تؤذي ولا تفيد" صـ6**، فاضطر إلى نقل رفات أجداده المدفونين في الساحة إلى مقابر جديدة، لكنه لم يفرط في ترابها، فأمر بنقل كل التراب القديم إلى المكان الجديد، وعلى الرغم من ذلك، فإنه لم يعد كما كان، وتوفي بعد أيام قلائل من هذا الحدث "**وقف الشيخ نور الدين يهيل التراب على أجساد وعظام أجداده، وهم يقرأون القرآن، ويدعون الله لهم وللمسلمين أجمعين بالمغفرة والجنة. يلقي الشيخ بآخر حفنة من التراب يتبعها بكلمة للشيخ سلامة جده: ياالله السلامة يا شيخ سلامة.. الملتقى قريب**" وبالفعل كان الملتقى قريبًا، ومات الشيخ نور الدين وهدمت الساحة في صيف واحد.

---

[12] البطل الإشكالي عند جورج لوكاتش في نظرية الرواية هو البطل المتردد بين عالمي الذات والواقع.. يعيش تمزقا دائمًا، انظر: فيصل دراج، نظرية الرواية، والرواية العربية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1999، ص40، 41.

وبعد موته لجأ السارد إلى آلية الاسترجاع الزمني من زاوية منظور صديق البطل "بصيري" الذي رافقه طوال سنوات عمره، وكان شاهدًا على تطور شخصيته من فتى متمرد حتى أصبح بطلًا شعبيًّا، كما سلط الضوء على مرحلة في حياة البطل الشعبي نور الدين حينما كان يحارب الإنجليز فترة إلقاء القبض على سعد زغلول.

**"قال الشيخ الطيب: هه يا نور الدين لسة هتحارب..؟**

**-أيوة يابا الشيخ.. ححارب لحد البلد ماتتحرر من كل أجنبي....**

**كانت مفاجأة كبرى أن يخبرهم الحكمدار أن السلطات قد قررت العفو عنهم لأن الثورة انتهت، فارتفعت الأصوات بالتهليل: نموت..نموت وتحيا مصر..**

**قال نور الدين لنفسه لم نمت ولم تحي مصر بعد.. أنا لا أرى شخصا تغير فالوجوه الإنكليزية مازالت تحكم مصر.."**صـ232، 233". فلم يفرح نور الدين مثل بقية رجال مدينته، وعاش مهمومًا يحمل على عاتقه مسئولية وجود الاحتلال، ولو لم يكن سببًا فيه. وبذلك تكون قد اكتملت دائرة سمات البطل الشعبي الممثلة في شخصية الشيخ نور الدين؛ زعيم جماعته، يحكم بينهم بالقرآن والسنة والإحسان، قراراته سيف على رقابهم، له بركات ورحمات، بطل حارب الإنجليز، وقاد أفراد قريته ضدهم، وحمل قضية بلده في قلبه وكان دائمًا مهمومًا بها، كما حمل مهمة الحفاظ على إرث أجداده وهويتهم وحضارتهم، مع الأخذ بالأفكار الحديثة التي تواكب الزمن الجديد للأجيال الشابة من عائلته، لمنعهم من الانسلاخ والتمرد الكامل على جذورهم، فتضيع قرون من غرس أجداده.

فمنذ اختباره الأول حتى الاختبار الأخير، عاش البطل الشعبي النامي، وعدد من الشخصيات الثانوية في الرواية في حالة تمزق وتشتت بين ذاتهم الفردية، والذات الجماعية التي تعبر عن عادات وموروثات مجتمعهم في صعيد مصر، ذلك المجتمع الذي أحبوه وعاشوا فيه، ولكنهم كانوا بحاجة إلى التمرد عليه من أجله، ومن هنا كان مأزقهم، وإشكاليتهم.

## المبحث الثاني: أثر التحولات الاجتماعية والثقافية في تشكيل الشخصية الروائية:

إن التكامل بين الأنساق الثلاثة التي تحدث عنها "تالكوت بارسونز" تفيد بأن الثقافة لا يمكن فهمها إلا من خلال الشخصية والنظام الاجتماعي، وأن النظام الاجتماعي لا يمكن دراسته إلا بعد فهم ودراسة واستيعاب الثقافة والشخصية.

**وبالنظر إلى رواية "سيرة الشيخ نور الدين"** نجد أن معظم شخصياتها كانت تتسم بالتمرد على مجتمعها وعاداتها وتقاليدها، وهذا التمرد كان له أثر في تشكل البنية الفنية للحدث، والزمان،

والمكان، بدءًا من الشخصية الرئيسية للنص؛ أي الشيخ نور الدين، وحتى الشخصيات الثانوية التي تمردت هي الأخرى على واقعها، وحاولت الانسلاخ من العادات والتقاليد وجميع الأنساق الثقافية والاجتماعية، مما أدى بدوره إلى تشكل نهايات لأدوارها تختلف اختلافًا جذريًا عن النهايات التقليدية لأشخاص في مثل بيئتها تكيفت واستسلمت لأقدارها. تلك الأقدار التي تتحكم فيها الموروثات مثل: النموذج المستسلم والمنصاع "**منيرة**" ابنة الشيخ نور الدين وأخت محمود التي انصاعت لتقاليد أهل قريتها، ولم تكمل تعليمها وتزوجت من ابن عمها بلا اعتراض أو شكوى.

وعلى النقيض كانت شخصيات الرواية مثل: الشيخ نور الدين، ابنه محمود، تريزا، دياب، والغازية رفيقة، فكلها شخصيات إشكالية عاشت ممزقة بين ما تريده لنفسها وبين عادات وتقاليد وموروثات أهلها، لكن تلك الشخصيات قررت أن تتمرد، فاختلفت نهايتها.

**فالشيخ نور الدين** بطل الرواية، ومحور أحداثها حاول تغيير مصيره من خلال محاولة هروبه للتعلم بالقاهرة، والزواج بفتاة قاهرية، فتأثر بمجموعة من الأنساق الثقافية الحديثة والتي أجرت بدورها عددًا من التحولات الاجتماعية في الأفكار والعادات والتقاليد التي شب عليها أفراد عائلته، ثم ما لبث أن خضع لها لكن بمواءمة اجتماعية بين ما تربى عليه وأصبح مسئولًا عنه، وبين الأفكار الحداثية التي استقاها من خارج بلدته "**إنه يذكر كيف ثار على وضعه في الساحة وهو في الثامنة عشرة، لقد كانت حياته تسير على نمط واحد...كان وجوده لخدمة الساحة اختيارًا من أهله، فقد ذهب من هم في سنه من أبناء عم أبيه، وأبناء أعمامه إلى الأزهر، وجد نفسه وحيدًا يقوم بعمل لا يحبه ولا يرى فيه مستقبله، طلب من والده أن يرسله إلى الأزهر، فلم يستمع إليه فهو وحيده ولا يريد أن يفارقه، ولما لم يفلح إلحاحه على والده بالسفر، قرر أن يقوم بالرحلة إلى القاهرة ليتعلم في الأزهر" ص6.**

وبعد ما أيقنت عائلته ضرورة تعليمه في القاهرة، سمحت له بأن يلتحق بالأزهر الشريف، ويستكمل تعليمه، فأصبح رجل علم، وعاد وصار كبير العائلة لكن بعد أن تسلح بالعلم والمعرفة، فحاول أن يوازن بين عادات وتقاليد أسرته وقريته بصعيد مصر من ناحية، وبين تعاليم ونصوص الدين الذي تعلمه في الأزهر الشريف، وبين الأفكار التي استمدها من القاهرة خلال فترة حياته وتعليمه، فكان هذا هو اختباره الأول في بداية حياته وتمرده الذي نجح فيه واستطاع تغيير قدره الاجتماعي والثقافي، وقدر عائلته التي أصبح كبيرها وقاضيها بعد ذلك، فتأثروا بدورهم بكل تلك التغيرات الاجتماعية والثقافية، لاسيما فيما يتعلق بانحيازه للمرأة وقضايا الفصل في حقوقها عند الزواج،

ونصرتها والحرص على إعطائها حقوقها عند الطلاق، وأيضًا اعترافه بالحب ووجوب حضوره عند الزواج.

وقصة حبه مع "**عطيات**" الفتاة القاهرية التي مثلت الاختيار الثاني في حياته .. تلك الفتاة التي نستطيع الجزم بأنها كانت حبه الوحيد، والتي أصر على الزواج منها رغم عادات وتقاليد أهله التي تفضل الزواج من أهله في الصعيد، لكنه انتصر في هذا الاختيار، وتزوجها بمباركة أسرته، لكن القدر كان له الكلمة النهائية، وماتت حبيبته قبل أن يدخل بها، فانصاع للاختيار الأكبر، وهو قضاء الله الذي لا يجوز معه تمرد أو تذمر "**غابت عنه عطيات.. هل هي تجربة يختبره الله بها**" **ص 126**.

وكان بالفعل أصعب اختبار مر به نور الدين، وكيف لا، وهو اختبار للقلب والنفس والهوى، أضعف ما يمتلكه الإنسان، لكن كل محنة في طياتها منحة كبيرة، فخرج نور الدين الشاب الذي لم يكمل الثالثة والعشرين من عمره من هذا الاختبار شديد الصعوبة أقوى من ذي قبل، فلم يفتن بعدما دعا ربه بأن يلهمه صبر أولى العزم؛ صبر موسى وعيسى ومحمد "**قام ليصلي، وقبل أن ينوي الصلاة فتح الباب ودخل الشيخ الطيب إليه في حجرته. يقسم صديقه بصيري أنه رأى عيني الشيخ الطيب، وقد اختفى بياضهما، وبدا سوادهما واضحًا قويًا.. خرج منهما ضوء يركز على وجه نور الدين وهو ينادي: يا نور الدين فتنت ولم تفتن، ستراها يا نور الدين فلا تفتن.**

**-لقد عبرت .. لقد عبرت.. آن الأوان أن تأخذ الطريق يا نور الدين، الناس تبحث عنا ترحل الأميال لتأتينا ونحن نبحث عنك الأميال لنلقاك، امدد يدك...**

**مد يده إلى شيخه، وأخذ عنه العهد، وسمع نصائحه بالواجبات والفروض الجديدة، ثم سحب الشيخ الطيب يده ومدها إلى صدره في الناحية اليسرى المجاورة للقلب، وأخذ يدعو الله: اللهم امنحه يقينًا بك.. ويقينًا بالناس، وسلامًا يدوم معه في الحياة الموت" صـ147**، فكانت تلك اللحظة في عمر نور الدين، وفي الحبكة الفنية لبناء الرواية، تمثل لحظة التحول والتكشف أمام القارئ، حيث إنها همزة الوصل بين مصير الشاب نور الدين الذي أصبح الشيخ نور الدين.

ومنذ تلك اللحظة أصبح "الشيخ نور الدين" شيخ عائلة الحجاجية، والحكم فيها، وصاحب الكلمة الأولى والأخيرة، وخادم الساحة، ونصير الفقراء والضعفاء، فكان اختباره الدائم من الله.

**" ثم هتف طفل: تنتخبوا مين؟**

**رد الأطفال وشاركهم بعض الكبار: الشيخ نور الدين.**

**قال أحد الواقفين بجوار محمود: لقد انتخبه الله" صـ69.**

كما كان لهذه القصة التي ظلت ساكنة في قلبه طوال سنوات عمره أثرٌ في تحول ثقافته وتفكيره تجاه قضية الحب، ويتضح هذا جليًا في مساعدته لـ"صليب" –صديق ابنه الفقير– في الزواج من تريزا الغنية فقط لأنه يحبها **"أهو أنتم كدة جيل الأيام ديه معندكمش حاجة إلا الحب، على كلٍّ الحب مش عيب" صـ105.**

أما عن قصة هدم الساحة، ونقل رفات أجداده الصالحين، فكان اختباره الأخير والأصعب الذي توفي بعده مباشرة **"كان روحًا من الحب والحنان والدفء حلت بعالمهم، لم يسألوا أنفسهم: متى ولد الشيخ؟ فهو قد ولد من زمن بعيد، ولم يتصوروا أن يغيب عنهم، فهو معهم بالأمس واليوم، وسيكون غدًا معهم عونهم على أشواك الحياة. عطاء من الله لهذه المدينة التي لا تعرف الراحة".**

**محمود:** ابن الشيخ نور الدين، زاوية المنظور والعين التي رأينا بها الرواية في معظم أحداثها، وهو خليفة والده وامتداده. محمود كان متمردًا على كل ما هو قديم مثل والده الشيخ نور الدين، أحب إلهام الأرستقراطية، لكنه اكتشف أنها منحلة، وكانت هذه الصدمة هي بداية التحول لديه **"كانت إلهام أرستقراطية تجيد وضع المساحيق على وجهها...تناقش في السياسة والاجتماع والاقتصاد، شيء لم يعرفه عن فتيات بلده حتى تريزا نفسها لا تقارن بها، الوجه الأبيض التركي ألغى الوجه الأسمر المصري، نضارة الحضارة قادرة دائمًا على إزاحة التخلف" صـ23**، لكنه اكتشف أنها منحلة، فبهرته الحضارة بأضوائها وحداثتها، لكنها في لحظة التكشف صدم بوجهها الحقيقي، وسقط مريضًا بعد أن كادت تفتك به.

رأى المتلقي "سيرة الشيخ نور الدين" من خلال محمود، وحتى بعد موته الذي هز وجدانه، وزلزل كيانه، لكنه خلص إلى أن أباه لم يمت، مثل أبي زيد الهلالي الذي ظل باقيًا في قلوب محبيه، فلا يوجد بطل شعبي يموت.

**تريزا:** فتاة صعيدية قبطية، أحبت محمود وأحبها قبل أن يرتبط بالقاهرية إلهام، لكن اختلاف الدين كان عائقًا أمامهم، على الرغم من أن محمود كان يذكر نفسه دومًا بقصة زواج جده الشيخ أبو الحجاج من جدته تريزا القبطية **"كثيرًا ما يعتز بأنها جدته، وأن في دمه امتزج الدم العربي والمصري القديم امتزاجًا لا يعرف التحلل، وتريزا هذه تهز الماضي كله .... لم يشعر من بين فتيات الجامعة أنَّ هناك فتاة تشده إليها مثلما تفعل تريزا. إنه يعرف أنها تكن له نفس المشاعر" صـ22.**

استطاعت أن تتغلب على العادات والتقاليد بقريتها، فأقنعت والدها باستكمال تعليمها في الجامعة بالقاهرة، لكنها لم تستطع الاقتران بمحمود، وكان هذا أيضًا بمساعدته، فكلاهما أيقن استحالة إتمام العلاقة والزواج، فوأدا المشاعر في قلبيهما" **فمع إنها تعلمت، فمازالت تعيش في قيود الصعيد التي لا فكاك منها.. لو كان هناك رجلًا تتمناه زوجًا لكان محمود، لكنها مسيحية مؤمنة بدينها وتقاليدها، وهو مسلم مؤمن بدينه وتقاليد "صـ88، 89.**

لكنها عادت وتمردت عندما تقدم لها صليب الفقير، وزميلها الجامعي، وأصرت على الزواج منه للتكافؤ الثقافي بغض النظر عن التكافؤ الاجتماعي، فواجهت أمها.

**"وإذا قلنا لا؟**

**أنا عارفة إنكم هتقولوا لأ**

**أصله يا بنتي دول مقامهم مش من مقامنا.**

**ليه يا أمة...؟ عم حسبو راجل شريف ومكافح، وابنه صليب راجل له مستقبل أحسن بكتير من شبان اليومين دول. أنا متأكدة إنه هيكون دكتور كبير.**

**وعلى كل أنا مش مستعدة للزواج.. أنا مش هتجوز خالص..هبقى عانس.أنا بفكر أروح الدير....**

- **تضايقت الأم.... يهيأ لها أن ابنتها تخيرها بين الدير وصليب .. ليتها ما تعلمت .. هذه نهاية التعليم" صـ108.** وكان ما أرادت ووافق أهلها على زواجها من صليب، فاختلف مسار حكايتها بعدما تمردت.

**دياب:** ابن عم الشيخ نور الدين، تعلم في الأزهر الشريف، وكان أمل الأسرة أن يعود ليصبح واعظًا وإمامًا، لكنه تفوق وأرسله الأزهر في بعثة إلى لندن ليحصل على الماجستير، لكنه أساء استخدام علمه، فتكبر على أهله حتى على والده وأخيه.

مر بفترتي تمرد؛ الأولى عندما رفض الزواج من ابنة خاله، وتزوج من فتاة قاهرية غنية، وعاش مع أهلها في العاصمة، ورفض الرجوع والعيش في الأقصر "**زادته هذه المصاهرة بعدًا عن أهله، لا يذكر محمود أنه زار بها الأقصر، كان كمن يخشى أن يريها لأهله الصعايدة المتخلفين...باع معظم نصيبه في الأرض، وكأنما أراد أن يقطع كل صلته بالماضي" صـ35.** وكان لذلك التمرد دلالات وتحولات اجتماعية وثقافية في مسار حياته، فحين ذهب إلى أوروبا تفتح على عالم كبير، عالم من الفردية والشعور بالذات وجد له صدى كبير في نفسه، وما زاده هو الفتاة التي قابلها في لندن تدرس الماجستير، وتواعدا على الزواج، وبالفعل تزوجها بدون علم أهله، ولم يسأله أهلها عن

أسرته، ومنذ تلك اللحظة شدته هذه الزوجة إلى عالمها، كانت تعطيه أوامر فقط، وأنجبت له ابنًا وبنتين، علاقته بهم قوية، لكنها ليست عميقة كعلاقته بوالده" **يشعر بفردية أولاده كفرديته، هذه الفردية التي بناها على أنقاض تاريخ طويل من شبابه غير أن فرديتهم تلقائية لا معاناة فيها ربما كانت ثمرة معاناته" صـ59.**

وعلى الرغم من أن ذلك التمرد أفاده في حياته الثقافية بعد أن تقلد أهم المناصب المرموقة في وزارة التربية والتعليم، لكنه طالما شعر بغصة انسلاخ هويته.

واستمر على حاله حتى كبر أولاده، ثم جاء التمرد الآخر، لكن هذه المرة على زوجته والحياة الحضارية بعد مرور أكثر من عشرين عامًا، وكانت اللحظة التي أرجعته إلى فطرته هي اللحظة التي عاد فيها لبيع نصيبه في البيت الذي تعيش به أمه وإخوته فخلعت ذهبها وفضتها، وأعطتها له، لتكون بمثابة الصفعة النفسية التي حفزت لديه روح التمرد مرة أخرى، وقرر أن يتمرد للمرة الأخيرة.

وعاد إلى جذوره، وكأن الأرض الطيبة لا تسمح لفروعها بالانسلاخ عنها، حتى ولو كبرت تلك الفروع وامتدت خارجها، فقرر أن يعود لقريته، ويقضي آخر عمره بها، وتبعته زوجته بعدما ترك لها الخيار، فالتمرد الأول كان على نشأته وأصله، والتمرد الثاني من أجل العودة لهذه النشأة وهذا الأصل.

**الغازية رفيقة:** تعد شخصية رفيقة من الشخصيات النامية التي تمردت على حياتها بفعل الحب والهداية من الله، فقد ولدت ونشأت وسط قبيلتها من الغجر الذين يتاجرون بأعراض بناتهم، وكانت منصاعة وسعيدة كونها أشهر راقصة وغازية في الأقصر، فكان يأتي إليها أغنى وأهم رجال البلد ليحظوا معها بليلة واحدة، لكنها أحبت نور الدين الشاب الفتي، ولم تصارحه خجلًا من تفاوت الدرجات بينهما، لكن في هذه الأثناء بدأت تعتريها مشاعر مختلفة عاشتها لأول مرة "**في الحقيقة هي تهتم، فقد اتجهت لله لأول مرة في حياتها، كرهت عريها، استحيت منه" صـ188.**

وجاءت لحظة التغيير التي أثرت على حياتها الاجتماعية، وقناعاتها التي ترسخت في تفكيرها بفعل عادات وتقاليد أهلها الغجر عندما ذهبت إلى بيت الشيخ نور الدين الذي أرشدها إلى طريق التوبة والهداية والرجوع إلى الله، وترك كل ما سبق في حياتها السابقة "**كان محفوفًا بنور من الجنة أعمى عينيها، أخذت ترتعش والشيخ يردد ورده، لكنها سمعت صوته قويًّا حنونًا:**

**ماذا أتى بك يا رفيقة؟ سبعة عشر عاما وأنا أنتظر حضورك فلا تأتيني.**

**ذعرت المرأة .. ينتظرها.. كيف؟**

- **سبعة عشر عاما تنصبين حبال الشيطان في المدينة، لا يردك رادع ولا يوقفك وازع.. تدفعين الناس للشر، تأكلين الدود، وتبعين جسدك رخيصًا بغير ثمن.**
- **يا رفيقة لن تتوقفي حتى يحل عليك غضب من الله ينزل بجسدك وروحك العذاب الأليم"**
- **يا رفيقة.. خلطت الحب بالغواية، فحرريه منها .. الحب هو حب الله، أحبي الله يغنك عن الناس ويطهر جسدك ويملأ قلبك بنور الحب.**

**رفع الشيخ يده إلى السماء، ليدعو الله: اللهم أنر قلب رفيقة، وتب عليها وعلينا وعلى المؤمنين .. اللهم باركها فإنها لا تعلم، واهدها واهد بها" صـ201، 202.**

وبالفعل تابت، وقررت الزواج من سيد أبو حسين عمدة الغرب، كبير الزغابي "**إنها راغبة في أن تصنع أي شيء، تتزوج أي رجل في الحلال يلمها ويكفيها هذه الصنعة الباطلة**"، وتحولت من امرأة بغي إلى زوجة شريفة لرجل من الأعيان، فتحول مسار حياتها الاجتماعية، وانسلخت من عادات أهلها الغجر، ولم تعد إليهم مرة أخرى، وجعلت مهرها من زوجها هو مساعدته لفتيات بيت البغاء على الزواج والتوبة، وكل ذلك ببركة الشيخ نور الدين الذي دعا لهم عند الله، فاستجاب منه، وفتح قلوبهم للهداية.

## <u>المبحث الثالث – حقل الرؤية السردية في سيرة الشيخ نور الدين:</u>

يُمثل الكاتب المتمرد "أحمد شمس الدين الحجاجي" البطل الإشكالي الذي دائمًا ما اشتبك مع المجتمع من خلال قضاياه التي يختارها لأعماله، فانعكس ذلك على شخصيات أبطاله في "سيرة الشيخ نور الدين"، فكتب سيرة غيرية عن شخصيات عايشها وعاصرها، وربما كان جزءًا منها، كما تناول قضايا شائكة في مجتمع الصعيد، كالحب، والدين، والبغاء، والاحتلال، والتمرد ضد الحكومة.

وكان المؤلف بمثابة العين التي نقلت الأحداث للمتلقي، وأناب عنه الراوي العليم الذي يرى من الداخل، فاستطاع بذلك سبر أغوار الشخصيات، وعلم عنهم أكثر مما علموا، وعلى الرغم من ذلك كان التبئير؛ أي تقليص حقل الرؤية عند الراوي "تبئيرًا داخليًّا"، وهذا عكس المتعارف عليه في الدراسات النقدية والسردية أن الراوي حينما تكون رؤيته من الخلف، أي كلي الحضور، يكون التبئير "صفر"، حيث إنه لا يقوم بالتركيز مع شخصية بعينها، ولا يُبَئِّر حكيه، بل هو عين الطائر الذي يرى جميع الشخصيات من فوق، لكن نجد أن هذه الرواية قد خالفت ذلك، لأن الحدث الفني يدور كله في محراب الشيخ نور الدين، وحقل الرؤية وزاويتها من خلاله، فقام أحمد شمس الدين الحجاجي

بكسر تابوهات الدراسات النقدية من خلال تغيير المتعارف عليه فيما يخص عنصر التبئير الذي يندرج تحت الصيغة السردية في تطبيقات جيرار جنيت على البنيوية.

وفي حين كانت زاوية الرؤية واحدة، وكان الراوي عليمًا طوال الأحداث؛ إلا أن الكاتب لم يستند إلى منظور سردي واحد، فانتقل بين الشخصيات المتمردة لنرى الأحداث بعينها، ومن وجهة نظرها بدءًا من البطل الرئيسي الشيخ نور الدين، ثم محمود ابنه، وتريزا، ودياب، وحتى رفيقة، لكن تظل هذه الرؤى مشتركة في المكان "القرية"؛ ذلك الفضاء الروائي الذي يجمع هؤلاء الأبطال على أرض واحدة، وفي فترة زمنية واحدة.

ولم يكن التمرد فقط عند الكاتب فيما يخص تقنية التبئير، بل تمرد المؤلف أيضًا على صيغة الخطاب؛ أي الحكاية من خلال اللغة التي كتب بها روايته، فاللغة السائدة في كتابة الرواية بين المؤلفين والكتاب هي لغة توصيلية، لكن الكاتب عمد إلى المزج بين اللغة التوصيلية؛ أي الفصحى البسيطة المستخدمة في الصحافة اليومية، واللهجة الصعيدية، وفي ذلك تأويل وهو أن المؤلف ربما أراد أن ينتقل بالقارئ لبلدته لمعايشة الشخصيات والعيش في فضائها وزمنها نفسه، أو ربما كان يحمل على عاتقه رسالة، وهي تأريخ تلك الفترة من حياة أكبر عائلات الأقصر "العائلة الحجاجية" والتي كان المؤلف جزءًا منها.

**"آدي هدومي .. في الصديري، جنيه دهب"**، **"منقدرش نقول لأ.. وحدك ولا معاك حد"**، **"معلهش يا أمة"**، **"لا يابا"**، وأيضًا أنشودة الرثاء أو ما يطلق عليه في الصعيد "العديد"

**"إياك أبونا، وإياك والي الكل**

**متقولِّي على كام يوم تيجي تطل**

**كان معاي دركة بجوز سلام**

**كان أبويا سبع وراح**

**أيا بوي عوامد بيتنا مالت**

**أيا بوي عوامد بيتنا وقعت.**

**يا بنيتو هدي الجرد كله**

**أبوك حلف ما عاد يدخل له**

**يا بت أبوكي تحت ولا فوق**

**ده أنا معايا وجيعة من عدم الذوق" صـ160**

فكان ذلك يمثل تمردًا من الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي، لأن معظم كتاب الروايات الذين ينتمون لصعيد مصر آثروا أن يكتبوا باللغة التوصيلية، المعتدلة التي تشبه لغة الصحافة، لكنه غامر بذلك ونجح في نقل عالم الصعيد بعاداته وطقوسه وثقافته، وتمرد أجياله اللاحقة على السابقين، واستيعاب السلف لمحاولة بعض الخلف التطلع إلى الخروج عن السائد والمألوف، فتلبس الكاتب عن طريق بطله "الشيخ نور الدين" روح العصر، ثم صهرها في بوتقة العائلة الكبيرة لتزداد أواصر العلاقات متانة بين الأجيال المتعاقبة، وليس تشتت أو انسلاخ عن الجذور والهوية.

ولم يكتف شمس الدين الحجاجي بحياة الشيخ نور الدين في سيرته الغيرية، لكنه ربط عن طريق سارد الرواية الذي أنابه عنه – بين الشيخ نور الدين وبين بطل السيرة الهلالية "أبي زيد الهلالي"، فكلاهما بطل شعبي التفت حوله جماعته، وكلاهما ظل حيًّا في قلوب مريديه، وظل خالدًا في التراث الشعبي **"تلفت محمود إلى النجم.. إلى النهر.. إلى الجميزة.. شعر بأن أبا زيد الهلالي سلامة لم يمت.. ونور الدين لم يمت.. ولم يهزم النهر أحد.. والجميزة لن تموت، ستبقى جذورها في النهر قوية لتلد أشجارًا أخرى، ربما ليس في هذا المكان، ولكن في مكان آخر" صـ255.** فالبطل الشعبي لا يموت ولكن التاريخ يخلده، وتظل الأجيال تتناقل سيرته، وتتخذه قدوة، وتحذو حذوه.

## خاتمة

كشفت هذه الدراسة عن دلالات التحولات الاجتماعية والثقافية للبطل الشعبي في "سيرة الشيخ نور الدين" للدكتور أحمد شمس الحجاجي، والتي كان سببها الرئيسي هو التمرد الذي عاشه وتمسكت به معظم شخصيات الرواية، فتحول المسار الاجتماعي واختلفت حيواتهم عما كان مخططًا لها طبقًا لعاداتهم وتقاليدهم، وأصولهم الصعيدية الحجاجية، لكن الوحيد الذي تمرد بحرص وقام بمواءمة اجتماعية وثقافية هو بطل الرواية "الشيخ نور الدين" الذي كتب عنه المؤلف المتمرد أحمد شمس الدين الحجاجي سيرة غيرية، فقد اشتبك الكاتب مع مجتمعه الذي نشأ وتربى فيه من خلال نصه الروائي، فجعل أبطال عمله يتمردون على العادات والأعراف الاجتماعية، والموروثات الثقافية، لكنه التزم في الوقت نفسه بإطار عائلته التي رفض خروج أي فرد من تحت مظلتها، فالتمرد كان بحساب واعتدال، كان تمردًا بناءً يضيف ولا ينتقص، تمردًا أساسه السعي إلى العلم والثقافة والمعرفة، والدليل على ذلك أن جميع الأبطال سافروا وخرجوا لكنهم في النهاية عادوا إلى فضاء

عوائلهم في الأقصر، حتى دياب الذي استمر تمرده وانسلاخه عن أرضه عشرين عامًا، عاد في النهاية بكل ما أوتي من علم وثقافة ووعي، مصطحبًا معه أسرته وأولاده، تلك الفروع الخضراء الغضة الجديدة التي طرحتها أرضه، ليعيد ترميم تلك الفروع بجذور عائلته مرة أخرى.

كما خلصت الدراسة إلى أن البطل الشعبي كان في معظم حياته إشكاليًّا ممزقًا بين الذات الفردية والذات الجماعية التي يعد صوتًا فيها، كما أنَّه لا يموت في قلب محبيه، وعلى صفحات التراث والتاريخ الشعبي. فكل بطل شعبي لن تندثر سيرته، وكل بطل إشكالي لن يستطيع أن يواريه الزمن، ويغلق عليه أبوابه، وكل رائد وعالم، تعلم، وعلَّم، وشكَّل فكر أجيال من الباحثين، لن يموت لأنه باقٍ في كل كلمة وأطروحة، وهذا هو حال الأستاذ الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي الذي ينطبق عليه قول أمير الشعراء "**الناس صنفان موتى في حياتهم .. وآخرون ببطن الأرض أحياء**"، فهو باق من خلال تلامذته، وعن طريق إبداعه الفني والأدبي.

## المصادر والمراجع:


- أحمد شمس الدين الحجاجي، سيرة الشيخ نور الدين، القاهرة، وزارة الثقافة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2012.
- جميل حمداوي، سيموطيقا العنوان، جدة، السعودية، دار النشر الشرقية، ط1، 2015.
- عبد الحميد المحادين، جدلية الزمان والمكان والإنسان في الرواية الخليجية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، 2001.
- فيصل دراج، نظرية الرواية، والرواية العربية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1999.